جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

من أنماط العدول البلاغي في سورة ص

إعداد

د / وليد السيد مصطفى فرج
أستاذ مساعد في قسم البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
فرع جامعة الأزهر بالمنصورة

د / سحر منصور السيد صباح
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية
كلية التربية جامعة المجمعة بالمملكة
العربية السعودية

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الأول٠٠٠أبريل)
(الجزء الثالث (١٤٤٤هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة(ISSN)2536-9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

من أنماط العدول البلاغي في سورة ص

وليد السيد مصطفى فرج

قسم البلاغة والنقد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر بالمنصورة.

سحر منصور السيد صباح

قسم اللغة العربية كلية التربية جامعة المجمعة بالمملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: waleedfarag@azhar.edu.eg

sahar.m@mu.edu.sa

ملخص البحث:

هذا بحث بلاغي بعنوان **(من أنماط العدول البلاغي في سورة ص)** يسعى إلى رصد أهم أنماط العدول البلاغي التي برزت في السورة مع بيان دقائقها ولطائفها وأسرارها. وتكمن أهميته في كونه لبنة في صرح الدراسات البلاغية التطبيقية التي تسعى إلى إماطة اللثام عن دقائق التعبير القرآني مما يسهم في تنمية أذواق المبدعين وصقل مواهبهم. وكان المنهج المتبع فيه منهجًا وصفيًا تحليليًا. وجاء في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة ثم ثبت لأهم المصادر والمراجع. جاء في المقدمة سبب اختيار الموضوع وأهدافه وأهميته وأهم أسئلته ومنهجه وكيفية تقسيمه. وجاء المبحث الأول تحت عنوان من لطائف سورة ص ودقائقها. وجاء المبحث الثاني بعنوان مصطلح العدول قديمًا وحديثا. والمبحث الثالث عنوانه الأسرار البلاغية لبعض أنماط العدول في سورة ص. ثم تأتي الخاتمة لتشمل أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة. ثم خُتِمَ البحث بثبت لأهم مصادره ومراجعه.

الكلمات المفتاحية: سورة ص، العدول، البلاغي، أنماط.

Patterns of rhetorical justice in Surat Sad

Waleed El-Sayed Mustafa Farag,
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Azhar University, Mansoura.
Sahar Mansour Al-Sayed Sabah,
Department of Arabic Language, College of Education, Majmaah University, Saudi Arabia

Email: waleedfarag@azhar.edu.eg
sahar.m@mu.edu.sa

Abstract:

This is a rhetorical research titled (From the Patterns of Rhetorical Adverb in Surat S) that seeks to monitor the most important patterns of rhetorical adverb that emerged in the surah with an indication of its subtleties, subtleties and secrets. Its importance lies in its being a building block in the edifice of applied rhetorical studies that seeks to unveil the subtleties of Quranic expression, which contributes to developing the tastes of creators and refining their talents. The approach used was descriptive and analytical. It came in an introduction, three topics and a conclusion, then it was established for the most important sources and references. In the introduction, the reason for choosing the topic, its objectives, its importance, its most important questions, its approach, and how to divide it, came in the introduction. The first topic came under the title of the subtleties and subtleties of Surat S. The second topic came under the title of the term renunciation, old and new. The third topic is entitled the rhetorical secrets of some patterns of justice in Surat S. Then comes the conclusion to include the most important results of the study. Then the research was concluded by establishing its most important sources and references.

Keywords: *Surah Al-Sad, Al-Adoul, Al-Balaghi, Patterns.*

المقدمـــــة

إن من أشرف ما يشتغل به الإنسان مدارسة كلام الله تأملا وتدبرا، وبهذا يجمع بين صلاح الدين والدنيا.

والقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد المعجز ما تعاقب الليل والنهار، وإلى قيام الساعة.

ولذا فقد وقع اختياري على سورة جليلة من سوره وهي سورة ص لتكون محل دراستي، لما لمسته فيها–عند معاودة التلاوة مرة بعد مرة – من اشتمالها على كثير من أنماط العدول البلاغي على اختلافها بين عدول تركيبي، أو عدول بياني، أو غير ذلك من عدول عن لفظة إلى أخرى أو عن صيغة إلى غيرها.

وعليه فقد جاء عنوان بحثي **(من أنماط العدول البلاغي في سورة ص)**.

حيث يسعى إلى رصد أهم أنماط العدول البلاغي التي برزت في السورة مع بيان دقائقها ولطائفها وأسرارها.

وتكمن أهميته في كونه لبنة في صرح الدراسات البلاغية التطبيقية التي تسعى إلى إماطة اللثام عن دقائق التعبير القرآني مما يسهم في تنمية أذواق المبدعين وصقل مواهبهم.

ويطرح البحث هذه الأسئلة محاولا الإجابة عنها:

هل ورد العدول البلاغي في سورة ص؟
ما أهم أنماط العدول البلاغي في السورة؟
ما الأسرار البلاغية والدقائق التعبيرية التي برزت فيها أنماط العدول في السورة؟
وكان المنهج المتبع في الدراسة منهجًا وصفيًا تحليليًا.

واقتضت طبيعة البحث انتظامه في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة ثم ثبت لأهم المصادر والمراجع.

جاء في المقدمة سبب اختيار الموضوع وأهدافه وأهميته وأهم أسئلته ومنهجه وكيفية تقسيمه.

وجاء المبحث الأول تحت عنوان من لطائف سورة ص ودقائقها.

وجاء المبحث الثاني بعنوان مصطلح العدول قديمًا وحديثا.

والمبحث الثالث عنوانه الأسرار البلاغية لبعض أنماط العدول في سورة ص.

ثم تأتي **الخاتمة** لتشمل أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة.

ثم **خُتِمَ** البحث بثبت لأهم مصادره ومراجعه.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

المبحث الأول

مـن لطائـف سـورة ص ودقائقها

« نزلت سورة ص بعد سورة القمر وقبل سورة الأعراف، وقد نزلت سورة الأعراف فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة ص في هذا التاريخ أيضا »[١].

وهي من السور المكية بإجماع العلماء فيما حكاه جماعة، ولم يُلتفت إلى القول المحكي عن الجعبري بمدنيتها وحُكِم عليه بعدم الصحة[٢].

« وآياتها ثمان وثمانون في عدّ الكوفة، وستّ في عدّ الحجاز، والشام، والبصر، وخمس في عَدّ أَيّوب بن المتوكِّل وحده. وكلماتها سبعمائة واثنتان وثلاثون. وحروفها ثلاثة آلاف وسبع وستّون. المختلف فيها ثلاث: « الذكر »، « وغوّاص »، « والحق أَقُولُ » مجموع فواصل آياتها (صدّ قُطْرُب مَن لجّ) ولها اسمان سورة صاد؛ لافتتاحها بها، وسورة داود؛ لاشتمالها على مقصد قصَّته في قوله: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ »[٣] [الآية:١٧].

---

(١) النظم الفني في القرآن الشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص٢٦٢، مكتبة الآداب مصر، د. ت.

(٢) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ج١ ص٤٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م. وينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي، ج٢ ص٤١٤، دار المعارف الرياض السعودية، ط١، ١٩٨٧م. وينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٢٣ ص٢٠١، الدار التونسية تونس، ١٩٨٤م.

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي، تح. محمد علي النجار، ج١ ص٣٩٩، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م.

ومعلوم عناية السور المكية بالدعوة إلى التوحيد وإثبات الرسالة والوعد والوعيد وغير ذلك مما تختص به السور المكية[1] وهذا كله يتجلى في آيات السورة من أولها إلى آخرها.

حيث ورد في أولها حكاية إنكار الكافرين لجعل الآلهة إلهًا واحدا قال تعالى: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [الآية:٥].

وجاء قرب نهايتها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ هذا عن دعوتها إلى التوحيد، أما ما ورد فيها من وعد ووعيد فقد جاء مفصلا في غير موضع فمنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) [الآية:٢٨] وقوله تعالى: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ * هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [الآيات:٤٩-٥٨].

والسورة معنية من أولها ببيان كون القرآن ذكرًا حيث وصفته بهذا في قوله تعالى: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [الآية:١] وتكرر هذا اللفظ في كثير من آياتها فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ [الآية:٨]، وقوله: ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ

(١) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج١ ص٣٨ وما بعدها، وينظر المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله يوسف جديع العنزي، ص٦٣، مركز البحوث الإسلامية، ليدز، بريطانيا، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

أَوَّابٌ ﴾ [الآية:١٧]، ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الآية:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [الآية:٣٢] وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الآية:٤٣]، وقوله: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [الآية:٤٥]، وقوله: ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ * هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [الآيات:٤٨، ٤٩]، وكما افتتحت بوصف القرآن باشتماله على الذكر خُتِمَت بالحكم عليه بكونه ذكرا للعالمين في صياغة قاطعة حاسمة حيث جاء ذلك الحكم في أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [الآيات:٨٧ ، ٨٨].

وواضح من استعراض الآيات المشتملة على الذكر بمختلف مشتقاته عناية السورة به وكأنها ما سيقت إلا لبيانه والتأكيد عليه فالقرآن ذكر ينكر الكافرون إنزاله على محمد دونهم، والذكر مأمور به في غير آية، ومحكوم به على القرآن في غير أسلوب بلاغي في المفتتح وفي الاختتام.

ولعل السر وراء شيوع الذكر بمشتقاته في سورة ص أنها وردت بعد سورة الصافات التي ورد فيها قوله تعالى حكاية عن الكافرين: ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ **[الآيات:١٦٧ – ١٧٠].**

فقد فصلت سورة ص هذه الآيات من سابقتها، إبطالا لحجة الكافرين.

وقد أشار السيوطي إلى هذا وغيره بقوله محاولا الربط بين سورة ص وسورة الصافات: « قد يُقال: لمَّا قال: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ الآيات، أتبع ذلك بقوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ فلسنا عاجزين عن تعذيبهم وهلاكهم، وأيضا لمَّا

قال: ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ۝ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ۝ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أقسم بالقرآن ذي الذكر الذي كانوا يتمنونه، لكن منعهم عما كانوا يعبدون العزة والشقاق، وقوله: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾ كالعائد على قوله: ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وأيضا لما قال في آخر الصافات: ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ أخبر هنا بغلبة جندهم، بقوله تعالى: ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ »[1].

ثم حاول التماس المناسبة بين سورة ص وسورة الزمر فقال: « قد يقال: لمَّا قال في آخر ص: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يعني القرآن: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ بيّن أنه منزل من الله تعالى، بقوله: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ »[2].

كما حاول أبو جعفر الغرناطي التماس تلك المناسبة بين سورة ص وسابقتها فجعلها في أنها عملت على بيان سوء مصير مشركي العرب لتكذيبهم، بعد أن فصلت سورة الصافات قبلها ما كان من أحوال الأمم السالفة مع أنبيائهم وما كان من تكذيب استتبع الإهلاك سخطا، ثم عنيت سورة ص – في رأيه– ببيان صبر الأنبياء السابقين، تسلية للنبي وتوجيها له للاقتداء بهم[3].

ويتلو عناية السورة بالذكر عنايتها بلفظ العزة في غير موضع أيضا فالكافرون في عزة ولما أراد إبليس القسم أقسم بعزة الله والعزيز اسم من أسمائه عز وجل تكرر في

---

(١) تناسق الدرر في مناسبات السور للسيوطي، تح. جميل عويضة، ص١٨، ٢٠١٠م.

(٢) السابق ص١٨.

(٣) ينظر البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر الغرناطي، تح. محمد شعباني، ص٢٩٠ وما بعدها، وزارة الأوقاف المغرب، ١٩٩٠م.

غير آية من السورة ولنستعرض هذه الآيات قال تعالى: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [الآيات:١ ، ٢]، وقال: ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ [الآية:٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [الآية:٢٣]، وقال أيضا: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الآيات:٦٥ ، ٦٦]، وقال تعالى ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الآيات:٨٢ ، ٨٣].

فالسورة تذكر نوعين من العزة العزة الوهمية التي يغرق فيها الكافرون والعزة الحقيقية التي يستأثر بها الله عز وجل قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [الآية:١٠].

وقال في آخر سورة الصافات: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الآيات:١٨٠-١٨٢].

فقد خُتمت سورة الصافات بذكر العزة في قوله: رب العزة « العزة الغلبة والقوة والمراد تنزيهه عن كل ما يصفونه، مما لا يليق بجنابه الشريف ورب العزة بدل من ربك، وأضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل: ذي العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه به، وقيل: المراد العزة المخلوقة الكائنة بين خلقه »[(١)].

وعلى القولين ترجع العزة إلى الله وحده ولا تكون على الحقيقة لأحد من خلقه.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي، تح. عبد الله الأنصاري، ج١١ ص٤٣٧ وما بعدها، المكتبة العصرية بيروت، ١٩٩٢م.

وهذا وجه آخر من وجوه الارتباط بين سورة ص وسابقتها سورة الصافات ينضم إلى تفصيل سورة ص للذكر الذي تمناه الكافرون في سورة الصافات.

وإذا كان الكافرون غارقين في عزتهم وشقاقهم كما جاء في مفتتح السورة في قوله: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ فإن السورة قد عُنيت أيضا بأمر الخصومة فنجدها مكررة في غير آية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ [الآيات:٢١ ، ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [الآية:٦٤]، **وقوله أيضًا** ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [الآيات:٦٧-٦٩].

فقد كثر ذكر الخصومات في السورة ليناسب ما حُكِم به على الكافرين في أولها من أنهم في شقاق.

وقد أرجع بدر الدين الزركشي كثرة ذكر الخصومات إلى افتتاح السورة بحرف ص فقال: « وَتَأَمَّل السُّورَةَ الَّتِي اجْتَمَعَتْ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُفْرَدَةِ كَيْفَ تَجِدُ السُّورَةَ مَبْنِيَّةً عَلَى كَلِمَةِ ذَلِكَ الْحَرْفِ فمن ذلك... مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ ص مِنَ الْخُصُومَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ فَأَوَّلُهَا خُصُومَةُ الْكُفَّارِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقولهم: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ إِلَى آخِرِ كَلَامِهِمْ ثُمَّ اخْتِصَامُ الْخَصْمَيْنِ عِنْدَ دَاوُدَ ثُمَّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ اخْتِصَامُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى فِي الْعِلْمِ وَهُوَ الدَّرَجَاتُ وَالْكَفَّارَاتُ ثُمَّ تَخَاصُمُ إِبْلِيسَ وَاعْتِرَاضُهُ عَلَى رَبِّهِ وَأَمْرُهُ بِالسُّجُودِ ثُمَّ اخْتِصَامُهُ ثَانِيًا فِي شَأْنِ بَنِيهِ وَحَلِفِهِ لَيُغْوِينَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا أَهْلَ الْإِخْلَاصِ مِنْهُمْ »[(١)].

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ج١ ص١٦٩، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، وصورته دار المعرفة لبنان، ط١، ١٩٥٧م.

وأقول: ليست الخصومات وحدها التي انبنت على حرف الصاد فقد كثرت الكلمات المشتملة عليه في السورة ومن ذلك: مناص، واصبروا وصيحة واصبر، وفصل، والصراط والصالحات والصافنات، وأصاب وغواص والأصفاد، وبنصب، وصابرا والأبصار، وأخلصناهم وبخالصة والمصطفين، وقاصرات ويصلونها وصالوا والمخلصين.

كل لفظة من هذه الألفاظ نجدها كقطب الرحى في كل فصل من فصول السورة، فالفصل كان مما امتن الله به على داود قال تعالى: ﴿ **وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾ [الآية:٢٠].

والصافنات كانت سببا لغفلة سليمان قال تعالى: ﴿ **إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** ﴾ [الآيات:٣١-٣٣].

والنصب كان سببا لدعاء أيوب قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** ﴾ [الآية:٤١].

وهكذا يمكن جعل كل لفظة من الألفاظ المشتملة على حرف الصاد عمودا لفصل من فصول السورة.

وإن كنت أميل إلى أن أهم لفظ اشتمل على حرف الصاد في السورة هو لفظ الصبر، وأرجح كونه أساسا متينا قامت عليه السورة وسيقت من أجله، فلئن أشرت من قبل إلى عناية السورة بالذكر فإني أؤكد هنا ما أشرت إليه من قبل وأزيد عليه أن الذكر كان محورا مهما من محاور السورة محورا مهما لذاته ولأثره أمَّا الذات فلأنه حبل واصل بين العبد وربه وأما عن أثره فإنه يُخلِفُ الصبر الصبر بجميع أنواعه صبر على الطاعة وصبر على اجتناب المعاصي واتباع دواعي النفس وصبر على الابتلاءات وصبر على الأعداء والخصوم، وجميع هذه الأنواع قد وردت في السورة.

ويدعم هذا ورود الصبر مأمورا به في قوله تعالى: ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [الآية:١٧].

وورود أيضا حالا في قصة أيوب في قوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [الآية:٤٤].

ويدعمه أيضا ورود اسم الله العزيز واسمه الوهاب واسمه الغفار في غير موضع من السورة، فالذكر يصل العبد بالله الغالب الذي يهب ما يشاء لمن يشاء ويغفر أيضا لمن يشاء، وهذا الاسم الجليل الغفار قد ورد في هذه السورة ليتواءم تواؤما تامًا مع ذكر لفظ أواب في غير آية وذلك أن العبرة بالمجاهدة والرجوع عند الزلل وليست العبرة بعدم الضعف.

والصبر يؤدي إلى اجتياز الاختبارات الإلهية حتى تكون الغلبة والنصر والفوز بمختلف المواهب الربانية، وهذا ما نجده جليًا في جميع قصص السورة التي أُمر الرسول بذكرها تسلية واقتداءً.

ومن لطيف ما قيل في سر تسمية السورة بـ « ص »، أنه مفتاح لاسم الله الصبور[١].

وذهب البقاعي إلى أن مقصود السورة هو بيان غلبة جند الله وإن بدا ضعفهم وإن تأخر نصرهم، مستشهدا لذلك بما ورد فيها من قصص الأنبياء وبخصائص حرف الصاد فقال: « المقصود منها بيان ما ذكر في آخر الصافات من أن جند الله هم الغالبون – وإن رئي أنهم ضعفاء، وإن تأخر نصرهم –... وعلى ذلك دلت تسميتها بحرف « ص » لأن مخرجه من طرف اللسان، وبين أصول الثنيتين السفليتين، وله

(١) ينظر لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، ج٤ ص٣١، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

من الصفات الهمس والرخاوة والإطباق والاستعلاء والصفير، فكان دالا على ذلك لأن مخرجه أمكن مخارج الحروف وأوسعها وأخفها وأرشقها وأغلبها، ولأن ما له من الصفات العالية أكثر من ضدها وأفخم وأعلى وأضخم، ولذلك ذكر من فيها من الأنبياء الذين لم يكن على أيديهم إهلاك، بل ابتلوا وعرفوا وسلمهم الله من أعدائهم من الجن والإنس... وحاله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أدل أحوال من فيها من الأنبياء على هذا المقصود، لما كان فيه من الضعف أولا والملك آخرا »[١].

ويؤيد حديث البقاعي عن خصائص حرف الصاد ما قيل عنه من أنه: حرف شعوري جميل الصوت عذب الموسيقى، يثير في النفس إيحاءات النقاء والصفاء والطهارة والبراءة والعزة وقوة الشكيمة، فهذا الحرف يتمتع بالأصالة والنبالة وروح الفروسية، قيل عنه: إنه للمعالجة الشديدة، وهو تفخيم لحرف السين وصفيريٌّ مثله، إلا أنه أملأ منه صوتًا، وأشد تماسكًا، فهو من أصوات الحروف كالرصاص من المعادن رجاحةَ وزنٍ، وكالرخام الصقيل من الصخور الصمَّاء صلابة ونعومة ملمسٍ، وكالإعصار من الرياح، صرير صوت يقدح نارًا.

ولقد منحته هذه الخصائص الصوتية شخصية فذَّة طغى بها على معاني معظم الحروف في الألفاظ التي تصدرها، ليعطيها من نقاء صوته صفاء صورة وذكاء معنى، ومن صلابته شدة وقوة وفاعلية، ومن طبيعته الصفيرية مادة صوتية نقية ما كان أصلحها لمحاكاة الكثير من أصوات الناس والحيوانات وأحداث الطبيعة. فكثير من المصادر التي اشتملت عليه تدل معانيها على الشدة والصلابة وقوة الشكيمة[٢].

وهذا يدعم ما ذكرته من دلالته على أهمية الصبر المأمور به في السورة.

---

(١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ج١٦ ص٣٢٢ بتصرف، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، د. ت.

(٢) ينظر خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، ص١٥١ وما بعدها بتصرف، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.

وبالإضافة إلى ما ذكره البقاعي من المقصود من سورة ص فقد تعددت آراء العلماء فيه على أقوال يمكن الإقرار بها جميعا لاشتمال السورة عليها فمن قائل إن مقصودها إنذار الكافرين بعذاب الدنيا والآخرة(١).

ومن قائل: إنه الإنذار مع بيان أسباب عدم استفادة الكافرين منه وذلك بجعل السورة مُفَصَّلَةً لآيتين من آيات سورة البقرة وهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢) [الآيات ٦ ، ٧].

ومن قائل: إنه توبيخ المشركين وتهديدهم، وتسلية النبي، ودعوته إلى الاقتداء بسابقيه من الأنبياء المذكورين فيها، وإثبات البعث وما يستتبعه من جزاء، ثم تفصيل جزاء المتقين وتفصيل جزاء الكافرين المجرمين المفسدين، وذكر أصل كل الضلالات غواية الشيطان(٣).

ومن قائل: إنها تعالج من القضايا التي تعنى بها السور المكية قضية التوحيد، وقضية الوحي، وقضية الحساب الأخروي(٤).

وعلى أي حال فلا تعارض بين هذه الأقوال جميعا فالسورة تشملها وتشمل غيرها، وإن كنت أميل إلى القول بعناية السورة البالغة بالذكر والصبر مما وجدت له أثرا في مفتتحها وفي جميع معاقدها، وفي تسميتها كذلك على النحو الذي مر بيانه.

وقد اشتملت السورة في صياغة مختلف تراكيبها على كثير من أنماط العدول البلاغي بغية تحقيق العديد من الأغراض المعنوية، وإحراز الغايات البيانية، وهذا ما سوف ينشغل ببيانه البحث بعد التوقف قليلا مع مصطلح العدول.

---

(١) ينظر النظم الفني في القرآن عبد المتعال الصعيدي، ص٢٦٢.

(٢) ينظر الأساس في التفسير لسعيد حوى، ج٨ ص٤٧٥٦، دار السلام القاهرة، ط٦، ١٤٢٤هـ.

(٣) ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٢٣ ص٢٠٣.

(٤) ينظر في ظلال القرآن السيد قطب، ج٥ ص٣٠٠٤، دار الشروق بيروت القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

المبحث الثاني

مصطلـح العـدول قديمًا وحـديثا

من المسلم به عند النقاد قديما وحديثا أن اللغة لها مستويان: المستوى الأول وهو المستوى العادي النفعي أو الأصلي، والمستوى الثاني هو مستوى الإبداع أو مستوى الفن والجمال، وللارتقاء من الأول إلى الثاني لابد من إجراء عمليات تركيبية مختلفة تعمد إلى إنطاق العبارة بالدلالة التي يبتغيها المنشئ.

وينشغل علم النحو وعلم اللغة بالمستوى الأول بينما تنشغل البلاغة قديما والأسلوبية حديثا بالمستوى الثاني حيث « تقف البلاغةُ عند الصورة الفعلية للكلام، ولا ترفض ما فيه من نقص أو انحراف، بل تحاول استغلالَهُ من زاوية فنية، بينما يحاول النحوُ أن يقدِّم صورة مثاليةً كاملة للغة، فإذا لم تُسعِفْهُ العبارةُ الفِعْلِيَةُ الظاهرة في الكلام.. تطوّع بتقدير هذه الصورة »[1].

وإذا كانت عناية البلاغيين منصرفة إلى اللغة الفنية وما تتميز به من مخالفة للنمط السائد الذي تمثله اللغة المثالية، فإنهم لم يغفلوا الجانب المثالي الأصلي بل جعلوه معيارًا يقيسون عليه مقدار المخالفة للأصل، فهو حاضر أبدا في أذهانهم عند معالجة النصوص المغايرة للأصل أو المنحرفة عنه، ولكنهم يتناولون ما بعد استيفاء هذا الأصل، لأن شرط الانحراف عنه يتضمن استيفاءَهُ أولًا، ولهذا لم يتخذوا من موضوعات بحثهم ما يتعلق بمطلق الإفادة ولا ما جاءَ على وَفْق أصل الكلام..[2].

---

(١) نظرية اللغة في النقد العربي د. عبد الحكيم راضي، ص١٩٣ وما بعدها، المجلس الأعلى للثقافة مصر، ط١، ٢٠٠٣م.

(٢) ينظر نظرية اللغة عبد الحكيم راضي ص٢١١ وما بعدها بتصرف شديد.

وقد اختلف قديما وحديثا في تسمية هذه المخالفة فقيل: إنها « الانزياح » و« التجاوز » و« الاختلال » و« الانحراف » و« الإطاحة » و« المخالفة » و« الشناعة » و« الانتهاك » و« خرق السنن » و« اللحن » و« العصيان » و« التحريف » والعدول وغيرها(١).

وهي جميعا تعني أن النص الأدبي « يكسر القواعد اللغوية الموضوعة، أو يخرج عن النمط المألوف للغة، أو يبتكر صيغًا وأساليب جديدة، أو يستبدل تعبيرات جديدة ليست شائعة بأخرى قديمة، أو يقيم نوعًا من الترابط بين لفظين أو أكثر أو يستخدم لفظًا في غير ما وُضع له »(٢).

وقد اصطفيت مصطلح العدول بدلا من هذه المصطلحات جميعا لعراقته وتجذره في تربة التراث العربي، ولكونه لفظًا قرآنيًا(٣)، ولما قد يُرمَى به الانزياح ومرادفاته الغربية بكونه « خرقا للقواعد وانتهاكًا للمعايير الثابتة، وليس في مصطلح (العدول) شيء من ذلك، ولكنه خروج عن الأصل، يُحدِث نوعا من: المفاجأة والدهشة، ويكون لغرض أو لمزية »(٤).

---

(١) ينظر الأسلوبية والأسلوب عبد السلام المسدي ص١٠١ وما بعدها الدار العربية للكتاب، ط٣، وينظر البلاغة والأسلوبية محمد عبد المطلب، ص٢٦٨، مكتبة لبنانْ ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ط١، ١٩٩٤م.

(٢) الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية فتح الله سليمان، مكتبة الآداب، ٢٠٠٤م.

(٣) ينظر سورة الأنعام آية ١، وآية ١٥٠، وسورة الأعراف آية ١٥٩، وآية ١٨١، وسورة النمل [آية ٦٠].

(٤) البلاغة الجديدة ما لها وما عليها، د. محمد شادي، ص٢٧١، عالم الثقافة للطباعة والنشر مصر، ط١، ٢٠٢٢م.

فـ« العدول في البلاغة العربية هو خروج الكلام عن الأصل، أو خروجه على خلاف الظاهر، مثل الالتفات، وأسلوب الحكيم، والقلب، والتورية، والتقديم، وسائر ضروب المجاز عدول[١].

ومعنى هذا أن للعدول مستويين: مستوى التركيب، ومستوى الدلالة، أو عدول في المبنى، وعدول في المعنى.

والعدول في القرآن الكريم ليس كسرًا للقواعد وانتهاكًا للضوابط، فلابد أن يكون المعدول إليه جائزًا متوافقًا مع سنن العرب وطرائقهم في التعبير وإن جاء على خلاف القاعدة النحوية أو اللغوية، فالقرآن قد نزل بلسان العرب وسننهم التعبيرية وإن خرجت تلك السنن عن أصل القاعدة.

ولعل المعنى اللغوي للفظ العدول يومئ إلى أن مخالفة الأصل قد تكون مرادةً لغاية كما يراد الأصل وزيادة، فبها يستوي المعنى للمنشئ على الوجه الذي يبتغيه، هذا الاستواء النابع من الاعوجاج والميل عن الأصل، وذلك أنه ورد في مقاييس اللغة « الْعَيْنُ وَالدَّالُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، لَكِنَّهُمَا مُتَقَابِلَانِ كَالْمُتَضَادَّيْنِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِوَاءٍ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى اعْوِجَاجٍ »[٢].

وجاء في القاموس « وعَدَلَ عنه يَعْدِلُ عَدْلًا وعُدولًا: حاد. وإليه عُدولًا: رَجَع »[٣].

ويشير الدكتور تمام حسان إلى أن المعدول إليه– لكثرته واطراده– صار مساويًا للمعدول عنه في كونهما أصولًا يُقاس عليها.

---

(١) السابق ص٢٦٩.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس، تح. عبد السلام هارون، العين والدال واللام، دار الفكر، ١٩٧٩م.

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي مادة عدل مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط٨، ٢٠٠٥م.

وهذا صريح في أن العدول ليس خرقًا وانتهاكًا لضوابط اللغة وقواعدها. فيقول عن العدول إنه: « خروج عن الأصل، اكتسب في الاستعمال قدرًا من الاطراد رقي بهما إلى رتبة الأصول التي يقاس عليها »(١).

والعدول من المصطلحات العربية الخالصة التي شاعت في مؤلفات علمائنا قديمًا(٢)، مرادًا به الخروج عن الأصل ومرادفًا لمصطلحات كالاتساع والمجاز وغيرهما

فلنقرأ قول عبد القاهر الجرجاني: « عليك أن تُوفِّقَ بين مَعاني تلكَ الأَلفاظِ المسجَّعة وبين مَعاني الفُصول التي جُعلتْ أردافًا لها، فلم تَسْتطعْ ذَلك إلاَّ بعد أن عَدلْتَ عن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، أوْ دخلْتَ في ضرْبٍ منَ المجازِ، أو أخذْتَ في نوعٍ منَ الاتِّساع، وبعد أن تَلطَّفْتَ على الجملةِ ضَربًا منَ التلطُّف »(٣).

فهذا الكلام يقطع بشيوع مصطلح العدول في كتب التراث العربي، مع دلالته على مرادفته لمصطلحات أخرى كالمجاز والاتساع.

وأظهرُ منه قول عبد القاهر أيضًا: « فالقسم الأول: « الكناية » و « الاستعارة » و« التمثيل الكائن على حَدِّ الاستعارة »، وكلُّ ما كان فيه، على الجملةِ، مَجازٌ

---

(١) البيان في روائع القرآن، تمام حسان، ص٢٣٧، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٢م.

(٢) كتب التراث تمتلئ بهذا المصطلح ولم أشأ أن أثقل كاهل البحث بنقل نصوص يمكن العثور عليها في مظانها، ينظر على سبيل المثال: الخصائص لابن جني، ج١ ص٦٠، ١٦٣، ٣٦٣، و ج٢ ص٨٤، ٢٦١، و ج٣ ص٢٠ وغيرها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، د. ت. وينظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ص٦٢، ٦٦، ٤٣٠، وينظر الفروق اللغوية للعسكري ص١٩٦، دار العلم والثقافة القاهرة، د. ت.

(٣) دلائل الإعجاز ص٦٢.

واتساعٌ وعُدُولٌ باللفظ عن الظاهر، فما مِنْ ضَرْبٍ من هذه الضُّروب إلاَّ وهو إذا وقَعَ على الصواب وعلى ما يَنْبغي، أوْجَبَ الفضْلَ والمزيَّةَ[١].

وهذا قاطع في أن العدول ليس خطأً أو خرقًا أو خللًا، فقد اشترط عبد القاهر فيه وقوعه على الصواب وعلى ما ينبغي ليحرز المزية المرجوة.

وبعد: « فإن مصطلح العدول ومفهومه ليس جديدًا في العربية ولا طارئًا على فنونها، غير أن الأسلوبيين يجعلون الانزياح (العدول) بمفهومه المعاصر خروجًا عن المألوف بدرجة أشد بكثير مما عرفه القدماء، حتى تصل العلاقة بين المعدول والمعدول عنه إلى درجة خفية جدًا »[٢].

ولأن مصطلح العدول مصطلح فضفاض، فإنه يشمل جميع الفنون البلاغية على اختلافها سواء منها ما يندرج تحت علم المعاني وما يندرج تحت علمي البيان والبديع، ولذا فسوف نتوقف مع بعض أنماطه التي وردت في سورة ص محاولين تلمس الأسرار والغايات البيانية التي بررت وروده فيها، بل جعلته ضرورة بيانية ووسيلة تعبيرية ناجعة.

---

(١) دلائل الإعجاز ص٤٣٠.

(٢) الأسلوبية الرؤية والتطبيق يوسف أبو العدوس، ص١٨٣، دار المسيرة، عمان، ط ١، ٢٠٠٧م.

المبحث الثالث

الأسرار البلاغية

لبعض أنماط العدول في سورة ص

سورة ص- كغيرها من سور القرآن الكريم- تحفل بالعديد من أنماط العدول البلاغي ، ولأن الاستقصاء ليس هدفاً لهذا البحث ، لأنه لو كان لاحتاج إلى مئات الصفحات ، ولذا فسوف أقتصر على بعض أنماط العدول التركيبي كالعدول عن لفظة أو صيغة دون غيرها ، والعدول عن الذكر إلى الحذف ، والعدول عن التعريف إلى التنكير والعدول عن الإطلاق إلى **التقييد وغيرها من الأحوال التي تطرأ على التراكيب** .

١- العدول عن لفظ إلى آخر أو عن صيغة إلى أخرى.

المتأمل في سورة ص، يجد فيها عدولًا عن ألفاظ إلى غيرها كالعدول عن الملجأ والمهرب إلى مناص والعدول عن حظنا ونصيبنا إلى قطنا، والعدول عن النفي ب ليس أو لا إلى النفي بلات، ويجد فيها عدولًا عن صيغة إلى أخرى كالعدول عن عجيب إلى عجاب، وعن مسبحات إلى يسبحن، وعن يحشرن إلى محشورة وغيرها.

ولعل السر وراء العدول إلى لفظ مناص دون غيره، في قوله تعالى: (**كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ** ﴾ هو الدلالة على تحقق الهلاك وتأكد وقوعه حتى إن المُهلَكين سُلِبوا القدرة على الحركة ونُزع منهم الاختيار فثبتوا في أماكنهم ليحل بهم ما قُدِّرَ عليهم، سواء في ذلك من أُهلكوا قديمًا، ومن ساروا على

نهجهم ولم يرتدعوا، يستفاد هذا من معنى مادة نوص يقول ابن فارس: « النُّونُ وَالْوَاوُ وَالصَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَرَدُّدٍ وَمَجِيءٍ وَذَهَابٍ »(١).

فالمقام حينئذ مقام خمود وعجز لهؤلاء الكافرين الذين مُنِحوا في حياتهم فرصة الاختيار ففوتوها حتى جاء وقت عذابهم، ذلك الوقت الذي تُسلب منهم تلك الفرصة.

فلو عبَّر بلفظ ملجأ أو مهرب لاستلزم ذلك ما يكون من حركة الهارب أو الفار، ولكنه أراد الدلالة على حالة العجز فعدل إلى لفظ مناص دون غيره، موقعًا إياه بعد نفي جازم.

ومما يؤيد هذا ما روي عن السدي أنه قال: « إنهم حين عاينوا الموت لم يستطيعوا فرارًا من العذاب ولا رجوعًا إلى التوبة »(٢)، فهذا دال على لزومهم حالة الثبات عجزًا.

وقد هيأ لهذا العدول عدول آخر قد سبقه، حيث عدل إلى النفي بلات دون النفي بلا أو ليس، دلالة على النفي القاطع الجازم، فقد قيل: إن أصلها لا ثم زيدت التاء كما زيدت في ثمت وربت(٣).

وعلل الزمخشري لزيادة التاء بأنها للتوكيد فقال: « وَلاتَ هي لا المشبهة بليس، زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب، وثم للتوكيد، وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضيها: إمّا الاسم وإما الخبر، وامتنع بروزهما جميعا، وهذا مذهب الخليل وسيبويه. وعند الأخفش: أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء، وخصت بنفي الأحيان »(٤).

---

(١) مقاييس اللغة مادة نوص.

(٢) النكت والعيون للماوردي تح. السيد عبد المقصود، ج٥ ص٧٨، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، د. ت.

(٣) الجنى الداني للمرادي ص٤٨٥.

(٤) الكشاف للزمخشري، ج٤ ص٧١، دار الكتاب العربي بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

ويرى الألوسي أن زيادة التاء لتأكيد النفي بناءً على قاعدة زيادة المعنى لزيادة المبنى فيقول: « زيدت عليها تاء التأنيث لتأكيد معناها وهو النفي لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى أو لأن التاء تكون للمبالغة كما في علامة »(١).

فقد تآزر العدولان في النفي بلات دون غيرها والتعبير بمناص دون غيره للدلالة على تحقق الهلاك وفوات فرصة النجاة وانقضاء زمان الإمهال والاختيار، ذلك الإمهال المشار إليه في آخر السورة بقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [الآية:٨٨].

وقد عُدِل في السورة إلى لفظ قطنا في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [الآية:١٦]، فلم يقل: نصيبنا أو حظنا أو عذابنا.

ولعل السر وراء هذا العدول الدلالة على أن هؤلاء لشدة كفرهم وعنادهم وجرأتهم على الله قد طلبوا الاستئصال العاجل، يستفاد هذا من أصل معنى مادة قطط يقول ابن فارس: « الْقَافُ وَالطَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى قَطْعِ الشَّيْءِ بِسُرْعَةٍ عَرْضًا »(٢).

وقد ذكر البقاعي أن إيثار لفظ القِط، كان للتنبيه على ركوبهم الهوى من غير دليل، مستندًا إلى المعاني المكروهة التي تدور حولها هذه المادة فقال: « وعبر بالقط زيادة في التنبيه على ركوب الهوى من غير دليل فإن مادته دائرة في الأغلب على ما يكره، واشتقاقه من القط وهو القطع... فكأنهم قالوا: عجل من ذلك ما يكون مقطوعًا به لا شك فيه ويسمع صوته على غاية الشدة فيهلك ويفرق بين الأحباب ويكتب في كل صك، ويتلى خبره في سائر الأحقاب، فإن ذلك هو أنا لا نرجع عنه لشيء أصلًا »(٣).

---

(١) روح المعاني للألوسي، تح. علي عبد الباري عطية، ج١٢ ص١٥٧، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

(٢) مقاييس اللغة، قطط.

(٣) نظم الدرر للبقاعي، ج١٦ ص٣٤٧ وما بعدها بتصرف، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، د. ت.

وهذا الكلام من البقاعي، يدعم ما ذكرته من أنهم طلبوا الاستئصال تحديًا وسخرية.

فلو عُبِّر بلفظ عذابنا، أو نصيبنا أو كتابنا أو غير ذلك، ما دلَّ على بلوغهم الغاية في الجرأة والسفاهة مثلما دلَّ عليه العدول إلى لفظ قطنا.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [الآية:٣٦]، عدول إلى لفظ أصاب بدلا من أراد، ولعل السر وراء ذلك العدول الدلالة على أنه كان مسددًا في جميع أموره فإن مجرد إرادته للأمر تقضي بتحقق حصوله وذلك من فضل الله عليه أن سخر له ما لم يسخر لغيره، هذا بالإضافة إلى أنه يأتي بالصواب دائما، يستفاد هذا من الدلالات المعجمية للفظ أصاب، فمنه الصواب وهو ضد الخطأ، وأصاب جاء بالصواب، وأصاب الشيء وجده، وأصابه أراده، وأصاب السهم القرطاس إذا لم يخطئ(١).

فلو عبِّر بأراد دون أصاب لحصر الدلالة في شيء واحد ولا يكون فيه دلالة على العاقبة، بخلاف التعبير بلفظ أصاب، فهو يدل على جميع ما ذُكِر.

وكذلك العدول في قوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [الآية:٢٠]، فقد عدل عن لفظ قوينا إلى لفظ شددنا للدلالة على إحكام الملك ووفرة الأسباب التي تجعله قويًا لا يطرأ إليه ضعف أبدًا، وذلك لأن الشد هو الإحكام يقول ابن منظور: وَقَدْ شَدَّه يَشُدُّه ويَشِدُّه شَدًّا فاشْتَدَّ؛ وكلُّ مَا أُحْكِمَ، فَقَدَ شُدَّ وشُدِّدَ »(٢).

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة صوب بتصرف، دار صادر بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

(٢) لسان العرب مادة شدد.

ويؤيد هذا ما ذكره ابن عطية من عموم هذه العبارة حيث قال: « وقوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنا مُلْكَهُ ﴾ عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وخير ونعمة »[1].

ومن العدول عن صيغة إلى أخرى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ حيث عدل عن لفظ عجيب إلى عجاب، للدلالة على شدة تعجبهم، وذلك لأن فُعال أبلغ من فعيل، كما قرر ذلك ابن جني معللًا تلك المبالغة بالانحراف عن الأصل[2].

ويدل على المبالغة في عجاب دون عجيب ما روي عن الخليل من أنه كان يفرق بينهما في المعنى فيقول: « العجيب هو الذي قد يكون مثله والعجاب هو الذي لا يكون مثله »[3].

ومن العدول في الصيغة أيضا ما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [الآيات:١٨، ١٩]، حيث عدل عن الاسمية إلى الفعلية في قوله: يسبحن بدلا من مسبحات، وعدل عن الفعلية إلى الاسمية في قوله: محشورة بدلا من يحشرن، وذلك للدلالة في الأول على التجدد والحدوث، وفي الثاني على الجمع دفعة واحدة لكونه أدل على القدرة، قال الزمخشري: « فإن قلت: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟ قلت: نعم، وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح... وقوله مَحْشُورَةً في

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تح. عبد السلام عبد الشافي، ج٤ ص٤٩٧، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

(٢) الخصائص ج٣ ص٢٧١.

(٣) النكت والعيون للماوردي، ج٥ ص٧٨.

مقابلة: يسبحن: إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شيء، جيء به اسما لا فعلا، وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن- على أنّ الحشر يوجد من حاشرها شيئا بعد شيء، والحاشر هو الله عز وجل- لكان خلفا، لأنّ حشرها جملة واحدة أدلّ على القدرة »[١].

٢- العدول عن الذكر إلى الحذف.

ومن أنماط العدول الواردة في السورة العدول عن الذكر إلى الحذف ومن ذلك حذف جواب القسم في قوله تعالى: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾، فالواو في والقرآن واو القسم، وقد جعل كثير من العلماء جواب القسم مذكورا فقالوا إنه: « ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ وقال الأخفش الجواب هو ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ وقيل هو صاد لأن معناه حق فهو جواب لقوله والقرآن كما تقول حقًا والله وجب والله ذكره ابن الأنباري وروي أيضًا عن ثعلب والفراء، وهو مبني على أن جواب القسم يجوز تقدمه وهو ضعيف »[٢].

وأكثر العلماء على أن الجواب محذوف، وقد اختلفوا في تقديره على أقوال منها « لتبعثن » ونحو ذلك، وقال الحوفي تقديره لقد جاءكم الحق ونحوه، وقال الزمخشري إنه لمعجز والمحلي ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال ابن عطية تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار من تعدد الآلهة، والقول بالحذف أولى[٣].

ولعل السر وراء العدول عن الذكر إلى الحذف، هو حث المتلقي على إعمال العقل والتأمل ، في هذا القسم مما يعمل على إثراء الدلالة وتكثير المعنى.

---

(١) الكشاف للزمخشري ج٤ ص٧٨.

(٢) فتح البيان للقنوجي، ج١٢ ص١٠.

(٣) السابق ج١٢ ص١٠.

والحذف من الأساليب البلاغية البديعة التي تجتذب القارئ، ليملأ الفراغات التي يصار إليها لغاية يتغياها الأديب، وقد ألمح الشيخ عبد القاهر إلى الطبيعة الفنية، والخصيصة الوظيفية لهذا الأسلوب فقال: « هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لم تبن »[1].

ومن العدول إلى الحذف ما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ [الآيات:١٠، ١١].

حيث حذف الشرط، وذُكِر جوابه فليرتقوا، ولعل السر وراء حذفه، هو الدلالة على شهادة الواقع بأن ليس لهم ذلك، فذكر ما يعجزهم به بأن أمرهم. بارتقاء الأسباب وما هم بفاعلين عجزًا

٣- العدول عن التعريف إلى التنكير.

وقد عدل عن التعريف إلى التنكير في قوله تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [الآية:٢].

للدلالة على شدة العزة والشقاق وتفاقمهما[2].

---

(١) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، تح. شاكر، ص١٤٦.

(٢) ينظر الكشاف، ج٤ ص٧١، وينظر فتح البيان للقنوجي، ج١٢ ص١١.

٤- العدول عن المضمر إلى المظهر.

كما عدل إلى وضع المظهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [الآية:٤].

فكان الأصل أن يقال: وقالوا هذا ساحر... ولكنه عدل إلى المظهر للدلالة على أن قولهم هذا لا يصدر إلا عن كفر تام يقول الرازي: « وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ وَقَالُوا بَلْ قَالَ: ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ إِظْهَارًا لِلتَّعَجُّبِ وَدَلَالَةً عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنِ الْكُفْرِ التَّامِّ »(١).

وعلل الزمخشري ذلك بأنه إظهار للغضب عليهم فقال: ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ ولم يقل: وقالوا، إظهارا للغضب عليهم، ودلالة على أنّ هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغيّ »(٢).

وقد عُدِلَ إلى المُظهَر في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [الآية:٢٧].

وكان الأصل أن يقال: فويل لهم... ولكنه « عبرَ عَنْهُمْ بِالْمَوْصُولِ لِمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ الصِّلَةُ مِنْ أَنَّهُمُ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ عَلَى سُوءِ اعْتِقَادِهِمْ وَسُوءِ أَعْمَالِهِمْ »(٣).

٥- العدول إلى القصر.

الأصل في الكلام أن يأتي مرسلًا خاليًا من الاعتبارات، ومخالفة هذا الأصل ينبغي أن تكون استجابة لغاية بيانية ولحاجة تعبيرية، تدفع المتكلم إلى صياغة كلامه

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ج٢٦ ص٣٦٧، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

(٢) الكشاف ج٤ ص٧٢.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٢٣ ص٢٤٨.

بأسلوب يشتمل على قيود ومؤكدات، وهذا ما يوجد في سورة ص، حيث نجد عددًا من المعاني صيغت في أسلوب القصر الذي يُخَصِّص شيئا بشيء دون غيره فنقرأ قول الله تعالى حكاية عن الكافرين: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [الآية:٧]، فنجد عدولًا إلى أسلوب القصر، حيث قصر الكفار ما جاء به محمد من دعوة إلى توحيد الله عز وجل، على كونه كذبًا مخترعًا جاء به محمد من عند نفسه، وكانوا قد وصفوه من قبل بالساحر الكذاب في قولهم فيما حكاه القرآن عنهم: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [الآية:٤]، فنسبوه إلى الكذب بصيغة فعَّال دلالة على شدة تكذيبهم له، فلم يقبلوا مجرد كونه نذيرا اصطفاه الله من بينهم، فتلاشى ما عرفوه عنه من الصدق والأمانة وتبخرت تلك المعرفة لتحل مكانها دعواهم بكونه ساحرًا كذَّابًا، فلما دعاهم إلى التوحيد، ازداد عجبهم فقالوا: ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [الآية:٥]، فعبَّروا عن العجيب بالعُجاب منحرفين بالتعبير عن أصله دلالة على بلوغ عجبهم ذروته، ولذا جاء قولهم بعد هذا: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾، في أسلوب قصري طريقه النفي والاستثناء ذلك الطريق الذي يقول عنه الإمام عبد القاهر الجرجاني: « وأما الخبر بالنفي، والإثبات نحو، ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه »[(١)].

ويقول الدكتور أبو موسى عن هذه الأداة من أدوات القصر: « لا تلقاك هذه الأداة إلا حيث تلقاك النبرة العالية، والنغمة الحاسمة والتعبير الشديد »[(٢)]. فالرسول صلى الله عليه وسلم يجزم بصحة ما جاء به، والكفار ينكرونه فالمقام مقام مواجهة

(١) دلائل الإعجاز ص٣٣٢.

(٢) دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى ص١٠٥، مكتبة وهبة القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م.

وحرب كلامية، يحشد فيها كل فريق ما أتيح له من أسلحة البيان، بالإضافة إلى أن الخصم المتمثل في الكافرين خصم غير شريف يعمد إلى الاغتيال المعنوي قبل الاغتيال البدني، فيرمي خصمه الذي كان معروفًا عندهم بالصادق الأمين بكونه ساحرًا كذَّابًا، بل إنهم في هذا القول: إن هذا إلا اختلاق، قد تجاوزوا هذا إلى اتهامه بالسعي إلى منفعة نفسه، يستفاد هذا من لفظ اختلاق سواء من خلال مادة خلق أو صيغته افتعال، فالمادة تدل في بعض معانيها على الإبداع من غير احتذاء يقول الراغب: « الخَلْقُ أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء »[(١)]، فقد زعموا أن دعواه بالوحدانية من اختراعه وليست مما يوحى إليه من ربه.

وأما تعبيرهم بصيغة الافتعال دون غيرها، فقد كان لدلالتها على قوة المعنى « فزيادة التاء بإزاء زيادة التسبب في حصول الأمر، فعمل وكسب يطلقان على كل عمل وكل كسب، واعتمل واكتسب لا يطلقان إلا على ما في حصوله تكلف وجهد »[(٢)].

ولذا فقد أُمِر النبي أن يرد عليهم في آخر السورة بقوله: ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** ﴾ [الآيات:٨٦-٨٨].

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تح. صفوان عدنان الداودي ص٢٩٦، دار القلم الدار الشامية دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

(٢) يُنظر: شرح التسهيل لابن مالك ج٣ ص٤٥٥ – تح. عبد الرحمن السيد ومحمد البدوي دار هجر للطباعة والنشر – ١٩٩٠م.

فقد رموه أيضًا بالسعي إلى منفعة نفسه، من خلال لفظ اختلاق بمادته وصيغته، لذا جاء رده عليهم بنفي كونه من المتكلفين.

وقد عُدّلَ أيضا إلى إن النافية دون ما النافية في هذه الآية وفي غيرها لدلالتها على شدة النفي فهي « آكد من (ما) يدل على ذلك اقترانها الكثير بـ (إلا) وهذا يعطيها قوة وتأكيدًا، فإن في القصر قوة... وقد وردت (إن) النافية في القرآن الكريم في عشرة ومائة موضع، كلها مقترنة بـ (إلا) أو (لَمَّا) عدا سبع آيات »(١).

فقد عدل هؤلاء إلى القصر بالنفي والاستثناء ثم عدلوا إلى النفي بإن دون ما، ثم عدلوا إلى لفظ اختلاق بمادته وصيغته الخاصة، ليدلوا على شدة كفرهم بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذا فقد كان الرد عليهم حاسما بسلاحهم نفسه ، حيث جاء بأسلوب القصر مؤثرًا النفي والاستثناء طريقًا له، ومؤثرًا النفي بإن دون غيرها فقال تعالى: ﴿ **إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ** ﴾ [الآية:١٤]، وفي قوله: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الآية:٨٧].

فالعدول إلى القصر بهذا الطريق والعدول إلى إن النافية دون غيرها يشي باحتدام المواجهة وشدة المجابهة، مما هيأ للأمر في قوله تعالى: ﴿ **اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [الآية:١٧]، وهذه الخصومة العنيفة تتفق مع عناية السورة بذكر الصبر وبالحث على الذكر، كما يتفق مع تسميتها ب ص وافتتاحها بهذا الحرف لما له من خصائص تدل على مقصودها على النحو الذي مر بيانه.

وقد عُدِل إلى القصر أيضًا في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارِ** ﴾ [الآية:٦٥]، حيث قصر نفسه صلى الله عليه وسلم على الإنذار

(١) ينظر معاني النحو فاضل السامرائي ج٤ ص٢٠٠ بتصرف، دار الفكر الأردن، ط١، ٢٠٠٠م.

دون غيره مما رموه به من السحر والكذب، وقد جاء هذا القصر بطريق إنما ليدل على أن حقيقة كونه منذرا ينبغي أن تكون من المسلمات التي لا تُنكر، خصوصًا أنها وردت بعد ذكر تخاصم أهل النار، وهذا ما جاء لينذرهم به.

ثم ذُكِرَت حقيقة ألوهية الله ووحدانيته في أسلوب القصر بالنفي والاستثناء ردًا على إنكارهم لها في قولهم: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [الآية:٥]، فصيغت في أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء الذي يكون مع المنكرين والمعاندين، بالإضافة إلى زيادة (من) لتأكيد النفي، ثم جاء الوصف بلفظ الواحد القهار لتأكيد هذه الحقيقة، يقول الدكتور صباح دراز: « فالآية جاءت بين غيبين: غيب آت يقدم مشهدًا حارًا لتنازع أهل النار... وغيب مضى وقتما خلق آدم عليه السلام... وقد بدأت الآيات بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾، وبين القصتين والغيبين تبرز ألوهية الله الواحد القهار المسيطر على الأكوان والأزمان والذي شمل شعاع قهره كل ما يكون وكل ما كان ولذا صيغ أسلوب القصر صياغة خاصة ملائمة للنسق وأتبع لفظ الجلالة بوصفين خاصين « الواحد القهار » فهو قصر حقيقي قوي الأخذ شديد السيطرة تميد به القلوب والعقول »[1].

ففي الآيات السابقات عُدل عن سوق الأخبار مطلقة إلى سوقها متسربلة بأسلوب القصر الذي يعمل على تقييد الحكم، وذلك لغايات بيانية كما مر بيانه.

٦- العدول عن حقيقة الاستفهام إلى معان أخرى.

الأصل في الاستفهام أن يكون لطلب الفهم، فإذا أفاد بمعونة القرائن معنى آخر، فحينئذ يكون قد عُدِل به عن أصله إلى ذلك المعنى.

---

(١) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د. صباح دراز ص١٧٧ بتصرف، مطبعة الأمانة مصر، ط١، ١٩٨٦م.

وهذا ما نجده في سورة ص حيث وردت فيها عدة استفهامات، لتفيد معاني أخرى غير معناه الأصلي.

وأغلب تلك المعاني التي أفادها الاستفهام في السورة كانت الإنكار أو التعجيب، ولعل السر وراء شيوع هذا المعنى هو طبيعة الخصومة المحتدمة تلك الخصومة التي عُنيت السورة بإبرازها وتجلية تفاصيلها، ومما لا يخفى أن في الخصومات يعمد كل فريق إلى إبطال حجج الفريق الآخر ودحض ادعاءاته، فناسب أن يشيع هذا المعنى معنى الإنكار في أجواء تلك الحرب الكلامية.

فمن ذلك ما حكاه القرآن عن إنكار الكفار لوحدانية الله، وإنكارهم اصطفاء محمد للرسالة قال تعالى: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [الآية:٥]، وقال: ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ [الآية:٨].

ولذا فقد جاء الرد عليهم بالأسلوب نفسه أسلوب الاستفهام الإنكاري والاستفهام التهكمي في قوله تعالى: ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ [الآيات:٩ ، ١٠].

فـ« أَمْ مُنْقَطِعَةٌ وَهِيَ لِلْإِضْرَابِ وَهُوَ إِضْرَابٌ انْتِقَالِيٌّ فَإِنَّ أَمْ مُشْعِرَةٌ بِاسْتِفْهَامٍ بَعْدَهَا هُوَ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ إِنْكَارًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الآية:٨]، أَيْ لَيْسَتْ خَزَائِنُ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَهُمْ فَيَتَصَدَّوْا لِحِرْمَانِ مَنْ يَشَاءُونَ حِرْمَانَهُ مِنْ مَوَاهِبِ الْخَيْرِ فَإِنَّ الْمَوَاهِبَ مِنَ اللَّهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ فَهُوَ يَخْتَارُ لِلنُّبُوءَةِ مَنْ يَصْطَفِيهِ...

﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ ﴾ [الآية:١٠].

وَالِاسْتِفْهَامُ الْمُقَدَّرُ بَعْدَ أَمْ الْمُنْقَطِعَةِ تَهَكُّمِيٌّ وَلَيْسَ إِنْكَارِيًا لِأَنَّ تَفْرِيعَ أَمْرِ التَّعْجِيزِ عَلَيْهِ يُعَيِّنُ أَنَّهُ تَهَكُّمِيٌّ. فَالْمَعْنَى: إِنْ كَانَ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَكَانَ

لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَصَّعَّدُوا إِنِ اسْتَطَاعُوا فِي أَسْبَابِ السَّمَاوَاتِ لِيُخْبَرُوا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ فَيَتَكَلَّمُوا عَنْ عِلْمٍ فِي كُنْهِ الْإِلَهِ وَصِفَاتِهِ وَفِي إِمْكَانِ الْبَعْثِ وَعَدَمِهِ وَفِي صدق الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ ضِدِّهِ وَلِيَفْتَحُوا خَزَائِنَ الرَّحْمَةِ فَيُفِيضُوا مِنْهَا عَلَى مَنْ يُعْجِبُهُمْ وَيَحْرِمُوا مَنْ لَا يَرْمُقُونَهُ بِعَيْنِ اسْتِحْسَانٍ »[(١)].

كما ورد العدول عن أصل الاستفهام إلى معنى الإنكار في قوله تعالى: ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [الآية:٢٨].

فـ« أَمْ منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، واتقى وفجر، ومن سَوَّى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما »[(٢)].

ففي الآية إنكار ونفي للتسوية بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار.

وبلاغة التعبير عن معنى الإنكار أو النفي بأسلوب الاستفهام تكمن في أن « الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي، كان في توجيه السؤال إليه حملا له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداء »[(٣)].

ولعل السر في العدول إلى أسلوب الاستفهام للدلالة على معان أخرى تُفهم من السياق، هو ما يمتاز به هذا الأسلوب من قدرة على إيقاظ النفوس وتنبيه الغافلين يقول الإمام عبد القاهر: « واعلمْ أَنَّا وإنّ كنَّا نُفَسِّر « الاستفهامَ » في مثلِ هذا

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٣ ص٢١٥ بتصرف.

(٢) الكشاف ج٤ ص٩٠.

(٣) من بلاغة القرآن د. أحمد بدوي ص١٢٦، نهضة مصر القاهرة، ٢٠٠٥م.

بالإنكار فإنَّ الذي هو مَحْضُ المعنى: أَنه لِيَتَنَبَّه السامعُ حتى يَرجعَ إِلى نفسِه فيخجلَ ويرتدعَ ويعيى بالجواب »[١].

« وهذا التنبيه عند الشيخ يكفي لتلقي كل ما يثار حول الفكرة من حقائق وبراهين تؤدي إلى رفضها أو قبولها أو الإقرار بها أو الخجل منها أو استنكارها أو استبعادها إلى آخر ما يعطيه الموقف.. المهم أن يلتفت السامع إلى هذه الحقائق ثم ندعه يتعامل معها بِوَعيه ويتدبرها بِفكره وينتهي فيها إلى ما يراه »[٢].

فقد ورد العدول عن أصل الاستفهام إلى معنى الإنكار والنفي في سورة ص، ثم تضمن هذا العدول عدولًا آخر، حيث عُدِل عن أسلوب النفي الصريح إلى أسلوب الاستفهام لما له من مزية سبقت الإشارة إليها.

وبعد، فقد كانت هذه بعض أنماط العدول الواردة في السورة، وهي كثيرة اقتصرت على أبرزها، فلم يكن الاستقصاء هدفًا لهذا البحث، وفي المذكور غنى، وفيه دلالة على المتروك.

---

(١) دلائل الإعجاز ص١١٩.

(٢) دلالات التراكيب لأبي موسى ص٢٤٤.

الخاتمـــة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وبعد

فقد كان هذا بحثًا تحت عنوان **(من أنماط العدول البلاغي في سورة ص)**، انتهيت من دراسته إلى عدة نتائج أورد أهمها فيما يأتي:

١- عناية سورة ص كغيرها من السور المكية بالدعوة إلى التوحيد، والوعد والوعيد، كما عُنيت ببيان كون القرآن ذكرًا مما أدى إلى شيوع لفظ الذكر -بمختلف مشتقاته- في مواضع كثيرة منها، وكأن السورة ما سيقت إلا لبيانه، وقد علل البحث لهذا الشيوع بورودها بعد سورة الصافات، لإبطال حجة الكافرين الواردة فيها في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الآيات:١٦٧-١٧٠].

وقد تكرر لفظ العزة في السورة أيضًا في مواضع كثيرة، وذلك لبيان أن الخصومة بين الكفر والإيمان سيكون منتهاها إلى غلبة الله ورسوله والمؤمنين.

وقد مَثَّل هذا التكرار لمادة العزة في السورة رابطًا بينها وبين سابقتها سورة الصافات.

وقد كثر ذكر الخصومات في السورة ليناسب ما حُكِم به على الكافرين في أولها من أنهم في شقاق.

وقد أرجع بدر الدين الزركشي كثرة ذكر الخصومات إلى افتتاح السورة بحرف ص.

٢- بناء السورة على حرف الصاد حيث افتتحت به ثم تكرر في الكثير من كلماتها، وكانت كل كلمة مشتملة عليه تُمَثِّل قطب الرحى في فصل من فصول السورة وفي كل موضوع من موضوعاتها، ورجح البحث أن أهم لفظ اشتمل على حرف الصاد قد كان لفظ الصبر -بمختلف مشتقاته- ، فقد تكرر في السورة تكررًا

ملحوظًا فكان أساسًا بُنيت عليه مع بنائها على الذكر وقد اثبت البحث ارتباطهما، كما علل لشيوع هذا الحرف ولافتتاح السورة به ولتسميتها به أيضًا، اعتمادًا على ما له من خصائص وصفات، من أهمها ما قيل عنه: إنه للمعالجة الشديدة، وأن أغلب المصادر التي اشتملت عليه تدل على الصلابة والشدة وقوة الشكيمة.

٣- مصطلح العدول مصطلح قديم ضارب بجذوره في تربة تراثنا العربي، عُرِف في العصر الحديث بهذا الاسم وبغيره من الأسماء كالانزياح والانحراف والانتهاك وغيرها، وآثر البحث مصطلح العدول لكونه عربيًا صميمًا مع كونه لفظًا قرآنيًا، ولما قد يُرمَى به الانزياح ومرادفاته الغربية من كونه خرقًا للقواعد وانتهاكًا للمعايير وليس في العدول شيء من هذا، ولكنه خروج عن الأصل، والعدول القرآني ليس خرقًا للقواعد فالمعدول إليه يكون جائزًا ويأتي الكلام موافقًا لسنن العرب وطرائقهم التعبيرية، وقد أثبت البحث من خلال المعنى اللغوي للفظة عدول أن مخالفة الأصل قد تكون مرادةً لغاية بيانية، كما يراد الأصل وزيادة.

٤- تعددت أنماط العدول البلاغي في السورة، ومن أهمها العدول عن لفظ إلى آخر أو عن صيغة إلى أخرى ومن ذلك العدول إلى لفظ مناص ولفظ قطنا ولفظ أصاب ويسبحن دون مسبحات، ومحشورة دون يحشرن، والنفي بلات دون لا، وصيغة فُعال دون فعيل، وغيرها مما ذكره البحث وعلل لوروده.

٥- ومن أنماط العدول أيضًا العدول إلى الحذف لإثراء الدلالة، ولتصوير الواقع بأن يُحذّف في الكلام المعدومُ في الواقع، والعدول إلى التنكير للدلالة على شدة الأمر، وإلى وضع المظهر موضع المضمر، للدلالة على سبب الحكم، مما فُصل في موضعه من البحث.

٦- ومن أهم أنماط العدول الواردة في السورة العدول عن الكلام المرسل إلى أسلوب القصر مصطفيًا له طريق النفي والاستثناء، ذلك الطريق الذي يأتي عند الإنكار

أو الشك، أو اليقين بالخبر وقد عُدِل فيه في الأغلب إلى (إنْ) النافية دون غيرها، وقد علل البحث ذلك العدول بدلالتها على تأكيد النفي بدليل ملازمتها ل (إلا) في أغلب مواضعها في القرآن الكريم، كما علل لشيوع هذا الطريق في السورة بملاءمته لحالة الخصومة المذكورة فيها، فكلا الفريقين يعمد إلى دحض حجج الفريق الآخر بأكثر الطرق دلالة على التأكيد والحسم.

٧- ومن أهم أنماط العدول التي شاعت في السورة العدول بأدوات الاستفهام عن معانيها الحقيقية إلى معان أخرى تُفهم من السياق، وأغلب تلك المعاني التي أفادها الاستفهام في السورة كانت الإنكار أو التعجيب، ولعل السر وراء شيوع هذا المعنى هو طبيعة الخصومة المحتدمة تلك الخصومة التي عُنيت السورة بإبرازها وتجلية تفاصيلها، ومما لا يخفى أن في الخصومات يعمد كل فريق إلى إبطال حجج الفريق الآخر ودحض ادِّعاءاته، فناسب أن يشيع هذا المعنى معنى الإنكار في أجواء تلك الحرب الكلامية.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

٢- الأساس في التفسير لسعيد حوى، دار السلام القاهرة، ط٦، ١٤٢٤هـ.

٣- أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د. صباح دراز مطبعة الأمانة مصر، ط١، ١٩٨٦م.

٤- الأسلوبية الرؤية والتطبيق يوسف أبو العدوس، دار المسيرة، عمان، ط١، ٢٠٠٧م.

٥- الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية فتح الله سليمان، مكتبة الآداب، ٢٠٠٤م.

٦- الأسلوبية والأسلوب عبد السلام المسدي الدار العربية للكتاب، ط٣، د. ت.

٧- البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر الغرناطي، تح. محمد شعباني، وزارة الأوقاف المغرب، ١٩٩٠م.

٨- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، وصورته دار المعرفة لبنان، ط١، ١٩٥٧م.

٩- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، تح. محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م.

١٠- البلاغة الجديدة ما لها وما عليها، د. محمد شادي، عالم الثقافة للطباعة والنشر مصر، ط١، ٢٠٢٢م.

١١- البلاغة والأسلوبية محمد عبد المطلب، مكتبة لبنانْ ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ط١، ١٩٩٤م.

١٢- البيان في روائع القرآن، تمام حسان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٢م.

١٣- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية تونس، ١٩٨٤م.

١٤- تناسق الدرر في مناسبات السور للسيوطي، تح. جميل عويضة، ٢٠١٠م.

١٥- خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.

١٦- الخصائص لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، د. ت.

١٧- دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى مكتبة وهبة القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م.

١٨- روح المعاني للألوسي، تح. علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٩- شرح التسهيل لابن مالك تح. عبد الرحمن السيد ومحمد البدوي دار هجر للطباعة والنشر- ١٩٩٠م.

٢٠- فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي، تح. عبد الله الأنصاري، المكتبة العصرية بيروت، ١٩٩٢م.

٢١- الفروق اللغوية للعسكري، دار العلم والثقافة القاهرة، د. ت.

٢٢- في ظلال القرآن السيد قطب، دار الشروق بيروت القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

٢٣- القاموس المحيط للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط٨، ٢٠٠٥م.

٢٤- الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٢٥- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٢٦- لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٢٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تح. عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٨- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي، دار المعارف الرياض السعودية، ط١، ١٩٨٧م.

٢٩- معاني النحو فاضل السامرائي دار الفكر الأردن، ط١، ٢٠٠٠م.

٣٠- مفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٣١- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تح. صفوان عدنان الداودي دار القلم الدار الشامية دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٣٢- مقاييس اللغة لابن فارس، تح. عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٣٣- المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله يوسف جديع العنزي، مركز البحوث الإسلامية، ليدز، بريطانيا، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٣٤- من بلاغة القرآن د. أحمد بدوي نهضة مصر القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٥- نظرية اللغة في النقد العربي د. عبد الحكيم راضي، المجلس الأعلى للثقافة مصر، ط١، ٢٠٠٣م.

٣٦- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، د.ت.

٣٧- النظم الفني في القرآن الشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب مصر، د. ت.

٣٨- النكت والعيون للماوردي تح. السيد عبد المقصود، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، د. ت.